الفنان بتكوينه وبطبيعته يسعى دائمًا إلى القمة، والقمة في الفن – كما في الحياة – هي قمة معنوية ليس لها آخِر، فكلما صعد إلى درجة، أدرك أن هناك درجة أعلى لم يصل إليها.

ولذلك فالفنان في حالة سعي دائم، وسفر، وبحث عن المجهول.. وهو يظل كذلك حتى يتوقف بفعل الزمن، أو يسقط.. بفعل فاعل!!

وعندما تتداخل دائرة الفن مع دوائر السياسة والسلطة، يكون الطموح هو مركز إحدى هذه الدوائر، ولكن للأسف فإن النتيجة التي نراها من هذا التداخل، هي (احتراق) الفنان بفعل لهيب السياسة، فلا هو نجح في تحقيق طموحه في الشهرة والنجومية، ولا هو تخلص من السهام الطائشة التي تصوب إليه كلما دار حديث في الفن أو في السياسة!

وبعض أبطال حكايات هذا الكتاب من الفنانين والفنانات، اقتربوا من السلطة، فاكتووا بنيرانها؛ إما لأنهم لم يدركوا حجم المخاطرة التي أقبلوا عليها، وإما لأن روح المغامرة قادتهم إلى بلاط السلطة فجرفتهم بعيدًا عن فنهم وجمهورهم، ولو لفترة، كما في بعض الحالات.

ونخلص إلى أن الفنان (فنان) يعبر عن آمال وأحلام جمهوره، وإن اضطر للتعبير عن أفكار السلطة، فإن ذلك يجب أن يكون وفق ما ارتضاه الشعب.. كل الشعب، والخطر – كل الخطر – أن يلعب الفنان مع السلطة.. مع الكبار! وعالم المخابرات ملئ بالأسرار والحكايات التي تفوق الأساطير رغم أن ما وصَلَنا منها ليس إلا أقل القليل مما سمحت به الظروف أو الصدف، ومع الأسف، فإن بعض الفنانين تم تجنيدهم تحت إغراءات معينة معظمها تدور حول مزيد من الشهرة والنجومية، أو بعد النفاذ إليهم من نقاط ضعف خاصة بهؤلاء الفنانين، والمؤسف أن أكثر هؤلاء كانوا من النساء المنتميات إلى الفن، ورغم عددهن القليل إلا أن حكاياتهن ذاعت وانتشرت. والواقع أن استخدام المرأة وتأثيراتها العاطفية على الرجل ليس بمستحدث في أعمال المخابرات والتجسس في جميع أنحاء العالم، منذ القدم وحتى التاريخ المعاصر.

ويعطى صلاح نصر رجل المخابرات المعروف مثلين لذلك: الأول عملية أطلقت عليها عملية لويس الرابع عشر – ملك فرنسا – وعشيقة شارل الثاني ملك إنجلترا، أما بطلة العملية فهي "لويز كوربالل".

وتبدأ الحكاية عندما ظهرت "لويز" على مسرح الأحداث، واستخدمها لويس بإرسالها إلى شارل، الذي كان يعانى من إفلاس خزينته، وعندما وصلت "لويز" إلى سرير ملك إنجلترا، أقنعته في اللحظة نفسها بالتوقيع على معاهدة "دوفر" السرية التي تنص على انسحابه من الحلف الثلاثى ضد فرنسا، وكان ذلك مقابل ثلاثة ملايين من الفرنكات تنقذه من الإفلاس و.. بضع قبلات وأحضان دافئة يقاوم بها برودة خوائه العاطفي!

المثل الثاني الذي يذكره صلاح نصر لاستخدام العواطف في أعمال المخابرات، هو مثل من مصر، وبطل هذه الواقعة هو ضابط المخابرات البريطاني الشهير "لورنس العرب"، الذي جاء إلى مصر والتقى بالعميلة "مرجريت داندريان"، ونجح في تجنيدها أثناء حفل أقيم في فندق شبرد (القديم)، وكانت مرجريت من النشاط بحيث نجحت في اختراق عدد من الأسماء في مصر، مستغلة أنوثتها الطاغية، وخلاعتها المتعمدة، وأحضانها المعروضة للبيع بدون مقابل – ظاهريًّا – غير الثرثرة في التفاصيل الدقيقة المسلوبة من أفواه مصادرها، بنعومة تشبه نعومة يد السارق الذي يسلبك أموالك دون أن تشعر بوجوده أصلاً.

وعن طريق الأخبار الخطيرة التي جمعتها الجاسوسة الحسناء المثيرة، هاجم البريطانيون – إبان احتلالهم المشئوم لمصر – فيلاّ في أطراف مدينة بورسعيد المصرية، عثروا فيها على مستودع ضخم للأسلحة والوثائق الخاصة بمنطقة سرية مصرية، كانت قد أعدت خطة سرية لسد قناة السويس في نقاط إستراتيجية.. وأجهض هذا الحادث آمال الوطنيين المصريين في فترة ساخنة من المواجهة مع الاحتلال البريطاني، لعب فيه سلاح الأنثى دوراً كبيراً!

ولذلك تأتي هذه العبارة "الصدمة" على لسان صلاح نصر.. الرجل الذي أسس جهاز المخابرات العامة في مصر، وقاده في فترة من أشد الفترات سخونة، وهي الفترة التي لاقت بعد ذلك ما لاقت من هجوم وانتقاد عنيف ومحاكمة لعلها مازالت قائمة حتى الآن..

يقول صلاح نصر في كتاب عبد الله إمام "الثورة.. المخابرات.. النكسة" (دار الخيال):

"نجحت بعض النساء العميلات لنا في الكشف عن قضايا تخابر لم يكن في استطاعة الرجال أن يصلوا إليها".

إن هذه الجملة – على قصَرها وقلّة عدد كلماتها – تحمل تكثيفًا لكثير من المعاني، واختزالاً لعشرات الأسئلة: لَماذا المرأة َدون الرجل؟ ما هي نوعية هؤلاء النسوة؟ ما هي

صفاتهن؟ ما هي نوع القضايا التي نجحن فيها وتفوقن فيها على الرجال؟ ثم – ولعله الأهم – ماذا قدّمن في سبيل إنجاح أعمالهن المثيرة؟ وأيضًا ماذا أخذن؟!!

* * *

إن المرأة التي خُلقت رقيقة، ضعيفة – فيما يبدو – تحمل سلاحًا فتاكًا، تشهره متى أرادت، وكيفما شاءت، فبعضهن يستخدمنه احتواءً للزوج – وهو حق مشروع على أية حال – في حين أن الأخريات استخدمنه في الحصول على مكاسب من مال أو سلطة، وبطريقة غير مشروعة بالطبع، وهن مسئولات عن الاستخدام الخاطئ لهذا السلاح الفتّاك – العواطف – ولا يلومُنّ إلا أنفسهنّ – إذا ما صدَّقنا شهادة صلاح نصر على هؤلاء النسوة، فهو يقول بالنص "ونحن لا نرغم النساء على أي شيء مهما كانت النتائج"!

إذا كان هذا هو الحكم على النساء العاديات، نقصد غير المشهورات، اللاتي لا يمتهنّ مهنة يتربحن منها، وليست لديهن موهبة ما يقضين الوقت في إشباعها، وأيضًا تدر عليهن مالاً ينفقن منه على احتياجاتهن المختلفة، فما بال الأمر بالنسبة لفنانات معروفات كنّ ملء السمع والبصر، تتهافت عليهن العدسات وفلاشات التصوير.. ما الذي جعل أقدامهن تنزلق إلى الهاوية.. هاوية الأعمال الخطرة التي تتطلب منهن تضحيات ليست بالقليلة، ولا بالهيّنة؟

هل أردن بذلك الانشغال في أعمال مثيرة، دفعهن إلى ذلك أن حياتهن قائمة – أساسًا – على الإثارة المستمرة؟

أم أردن الحصول على مزيد من المال، رغم أن للمال طرقًا أخرى أكثر أمنًا وهنّ أدرى بها؟

أم أردن "سُلطة"، أو بالأحرى التقرب من السلطة، وبالتالي إتاحة الفرصة أمامهن للقيام بأعمال الوساطة، و"التخليصات" والسمرة؟ أم أن أحدًا قد دفعهنّ – عامدًا متعمدًا – إلى الهاوية؟!

إن صلاح نصر رجل المخابرات المتهم باستخدام الفنانات في أعمال المخابرات "ضمن استخدامه النساء بصفة عامة" عندما سُئل:

ـ هل استخدمتم الفنانات؟ فإنه يردّ بلا تردد:

ـ عدد محدود.. لا يكاد يُعدّ على أصابع اليد!!

وحسنًا قال إن عددهن محدود؛ فالغالبية العظمى من الفنانين والفنانات المصريين يربأون بأنفسهم عن الأعمال البعيدة عن تخصصهم ومواهبهم التي منحها الله لهم لإسعاد

الناس وتوعيتهم، عن طريق الرسالة التي يحملونها في أعناقهم. . ولكن تعالوا نقرأ إجابات صلاح نصر عن أسئلة عبد الله إمام:

* هل كان ذلك بالضغط عليهنّ؟

ـ اللاتي تعاونّ معنا من الفنانات، رحّبن فوراً بالعمل معنا، ولكل واحدة منهن (ملف) موقّع بإمضائها برغبتها، وكل واحدة من اللاتي تعاونّ معنا حصلت على أجر كامل عما قامت به. (إذًا، فالمال كان جزءًا مهمًا في هذا العمل!).

وبعض اللاتي يتشدقن الآن بالعفة، كانت تأخذ أجرها عن كل عملية تقوم بها!!

وفي موضع آخر يقول صلاح نصر: إن العلاقة بين رجل المخابرات والعميل هي علاقة سيد ومسود؛ الأول يدفع ويأمر، والثاني يأخذ وينفّذ.

هذا عن المال، فهل هناك شيء آخر؟

يقول صلاح نصر في معرض حديثه عمّا يسمى بأعمال السيطرة على العميل بصفة عامة:

لأن المرأة أكثر تقلبًا من الرجل، كان تصويرها ضروريًّا للسيطرة عليها عند اللزوم.

فهل تم استخدام هذا النوع من أعمال السيطرة (التصوير في أوضاع مخلّة) مع فنانات؟ هل كنّ يقمن بأعمال من هذا النوع المتدني؟

الأوراق "الجادة" في هذا الموضوع – وهي قليلة – لا تؤكد ولا تنفي، رغم وجود العديد من الأوراق الصفراء التي تذكر تفاصيل مهينة في هذا الإطار، مع تأكيدنا الشديد على أن عدد الفنانات اللاتي استُخدمن في أعمال المخابرات عددهن قليل ولا يكاد يُعَدّ على أصابع اليد (كما اعترف مدير جهازَ المخابرات صلاح نصر بنفسه).

* * *

وإذا كان الأمر كذلك بعد إنشاء جهاز المخابرات العامة في مصر، فإن استخدام الفنانات لم يكن شيئًا من اختراع الجهاز ولا من متطلبات تلك المرحلة؛ فقد سبق ذلك حكايتان لفنانتين مشهورتين: الأولى هي "ليليان ليفي كوهين"، التي اشتهرت في مصر باسم "كاميليا"، وقصة علاقتها بالملك فاروق الأول ملك مصر، الذي يمثل السلطة في أعلى مستوياتها وقتها، وكذلك ما قيل عن تورطها مع نجمة الألغاز الأميرة "أسمهان" – آمال الأطرش – التي جذبها ضوء السلطة فحامت من حوله كفراشة ملونة، هائمة، حتى احترقت من شدة الاقتراب، واختلف الناس في حل لغز وفاتها المفاجئ – في حادث سيارة – هل هي منافستها "أم كلثوم"، أم هو الملك فاروق نفسه انتقامًا من ترديدها لفضائح أمه الملكة نازلي، أم هو طليقها الأمير الدرزى، أم الإنجليز، أم الفرنسيون؟ في حين أشار البعض إلى الألمان بأصابع الاتهام. . كل هؤلاء تَفرَّق بينهم دم أسمهان. . الأميرة المغامرة، التي كان ينتظرها في الفن مستقبل رحب، وراحت تجرى وراء أوهام السلطة وجو

المخابرات المثير، فانتهت هذه النهاية المأساوية السريعة دون أن يطول استمتاعها باللعبة الخطرة.

* * *

مع ملاحظة أن الفنان (الرجل) لم يكن بعيداً عن لعبة السلطة والمخابرات!

وفي السينما العالمية كانت ملكة الإغراء المتوَّجة "مارلين مونرو" نموذجًا مجسداً لاحتراق الفنان عندما يتخطى الخطوط الحمراء، إن مارلين كانت قد وضعت نهايتها بنفسها عندما أخرجت ذات يوم مفكرتها الحمراء وبها مجموعة من الأسرار الدقيقة التي سجلتها بعد لقاءات متعددة لها مع الرئيس الأمريكي جون كيندي وشقيقه المدعي العام قائلة: إنها ستدعو إلى مؤتمر صحفي عالمي تعلن فيه هذه الأسرار، قائلة في تحدٍّ: إن لديها الكثير لتقوله!

ثم ما حدث لها بعد ذلك من موت مفاجئ دراماتيكى، سبقه مراقبة دقيقة ومحكمة خشية أن تقوم على إفشاء هذه الأسرار الدقيقة.. فهل هناك ربط بين كل تلك الأحداث؟

* * *

وفي مصر..

ما قصة السيدة "نون"، وهي سيدة من الوسط الفني اشتهرت بارتباط اسمها باسم شخصية سياسية قيادية كبيرة؟ وكيف قيل إنها وقَّعت إقراراً بنفسها – على نفسها – عام 1960 لتصبح مندوبة للمخابرات، حتى قيل إنها اشتهرت بذلك في الوسط الفني، وانتهي بها الأمر إلى الزواج العرفي من الشخصية السياسية، وهي نتيجة لم تصل إليها فنانة أخرى فيما يبدو.

* * *

ولكن يبقى هناك من الفنانين من جاءتهم الفرصة، إلا أنهم لفظوها، البعض رفضها لأن العرض كان ضد مبادئه وضد الأخلاق المهنية؛ كحالة الفنان الكبير يوسف وهبي الذي طاردته المافيا الإيطالية، ورفضها البعض الآخر إيمانًا منه بقوميته وبمصريته ووطنيته؛ كما في حالة الفنان سمير الإسكندراني الذي ظنت فيه "الموساد" صيداً سهلاً، وحاولت تجنيده أثناء إقامته في إيطاليا، فكشفهم ولطمهم لطمة شديدة أضيفت إلى صفعات سابقة ولاحقة.

وهذا الكتاب ليس موضوعه البحث في ملفات المخابرات، وإن كان يتعرض لذلك في جزء منه، وإنما هدفه البحث في علاقات الفنانين بالسلطة التي يبدو أنها كانت حلمًا وغاية لدى عدد كبير منهم؛ باعتبارها جزءاً من "الهالة" التي يحب النجوم – في الغالب – أن

يحيطوا أنفسهم بها، ووسيلة لاكتساب بعض النفوذ تفيد بعضهم بالطبع في فرض سطوتهم ونجوميتهم على الوسطين الفني والاجتماعي.

ولعل ما سبق هو الذي أوقع بعدد من مشاهير الفن في شباك المخابرات، ولم يكن صعبًا تجنيدهم، أو تجنيدهن، للقيام بأعمال جمع المعلومات بأية وسيلة!

صحيح أن هذه المعلومات كانت تقدّم لمصلحة أمن الدولة في بعض الحالات، وصحيح أن جهاز المخابرات العامة المصري – على سبيل المثال – كان يسعى للاستفادة من كثير من هذه المهام، وقام – بناءً على جزء منها – بأعمال بطولية أذهلت العالم، ولكن الصحيح أيضًا أن الفنان كان يلعب في غير ملعبه، وأنه استُخدم استخدامًا ينافي طبيعة الخدمة التي يقدمها للناس، وبعيد كل البعد عن جو الا بداع الفني الذي تقدّم إلى الناس من خلاله بأوراق اعتماده.

ولا يستطيع أحد أن ينكر مثل هذه المشاركات، فقد اعترف بها كل أطرافها، لدرجة أن المهندس حلمي السعيد، وهو الرجل الذي كان مستشارا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر في الاقتصاد والتخطيط وقبلها أحد ضباط يوليو الأحرار (1952) والذي أوكل إليه جمال عبد الناصر بالتحقيق في القضية التي اصطلح على تسميتها انحراف جهاز المخابرات العامة" التي كان على رأسها مؤسس الجهاز صلاح نصر، لقد ذكر الرجل في مذكراته أنه تم استدعاء (44) سيدة وفنانة في التحقيق الذي بدأ في الساعة الثامنة مساء يوم (28) أغسطس عام 1967 وانتهي في الساعة الحادثة عشرة من مساء يوم 14 أكتوبر من العام نفسه.

ونحن نعترف بأننا ليس بإمكاننا أن نحصى (كل) الحالات التي تعامل فيها الفنانون مع أجهزة المخابرات، ففي كل يوم تتكشف لنا فصول جديدة في هذا السياق يكشف عنها الستار للمرة الأولى، ولعل قنبلة الأيام القادمة ستبرز في كشف بعض الفنانين عن حكايتهم المثيرة مع المخابرات (السلطة) وكيفية لعبهم مع الكبار، وقد كشف مؤخراً فنان لعب أدوار الفتى الأولى في عدة أفلام جميلة من زمن الأبيض والأسود، ولكنه في الوقت ذاته كان يلعب لعبة أشد خطراً وإثارة هي لعبة المخابرات.. الفنان هو إيهاب نافع الذي اعترف بلعبته المثيرة، وإن كان قد لعبها لمصلحة الوطن.. وسننتظر حتى يدلى الفنان إيهاب نافع بشهادته كاملة ثم يكون لنا بعدها حق التحليل والتعليق.. ومازلنا ننتظر أن يخرج الكثيرون عن صمتهم.

ودعونا نتعرف على الحكايات من أولها.

طاهر البهي

مدينة نصر
سبتمبر 2004